زلزال أمنـــي في إسرائيـــل
«طوفان الأقصى الصدمة التي لا يمكن استيعابها»

كيف تصدّعت منظومة إسرائيـــل الدفاعيـــة ومعها اسطورة الجيـــش الذي لا يقهـــر؟

د. عبد الرزاق غراف

www.grc.net

جميع الحقوق محفوظة لمركز الخليج للأبحاث ٢٠٠٢ - ٢٠٢٣ ©

زلزال أمني لم تشهده إسرائيل من قبل، ففي حادثة يصعب استيعابها حتى من طرف أكثر المشكّكين في مناعة إسرائيل المطلقة من أي اختراق أمني وعسكري، نجحت فصائل المقاومة الفلسطينية في اجتياح ما يعرف بـ «غلاف غزة» وهو الشريط المحاذي لحدود القطاع مع إسرائيل، والذي يحتوي على زهاء ٤٠ مستوطنة يقطنها حوالي ٥٠ ألف مستوطن، فضلا على عشرات القواعد والنقاط العسكرية.

حجم وطبيعة الهجوم والخسائر التي ألحقها بالقوات الإسرائيلية على الصعيدين العسكري والاستخباراتي والاستراتيجي والتكتيكي، تجعلنا أمام حدث للتاريخ لم تشهده إسرائيل منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ من ناحية حجم الخسائر البشرية التي بلغت آخر إحصاءاتها وفق المصادر الإسرائيلية ٢٥٠ قتيل، بل منذ تأسيسها في ٣٠ مايو ١٩٤٨ بالنظر لكونه حوّل أراضي ١٩٤٨ إلى ساحة مواجهة مسلحة، وهو الحدث غير مسبوق الذي طوال أطوار الصراع العربي الإسرائيلي.

القراءة الأولية تجعلنا أمام حتمية مراجعة الكثير من المسلّمات التي لطالما شكّلت مجتمعة معالم تلك الصورة النمطية عن قوة إسرائيل "كدولة فوق العادة»، بالنظر لمناعتها وتفوقها المطلق أمنياً وعسكرياً واستخباراتياً وتكنولوجياً، بما يجعل من الصعب على الذهن الفلسطيني المقاوم استيعاب التخمين في المبادرة بفعل عسكري يحدث اختراقاً لخطوط الدفاع الإسرائيلية هو أقرب في حقيقته لنموذج من «الاجتياح» أكثر من كونه «اختراق»، وهو المنطلق الاستراتيجي الذي ظلّ ومنذ تأسيس إسرائيل حكراً على التفكير الاستراتيجي الإسرائيلي المبادر بـ «الاجتياح» والبعيد عن أي تهديد بـ «الاجتياح المضاد».

كثيرة هي مستويات التحليل التي من خلالها يمكن تفسير ما حدث وما يمكن أن يحدث على المدى القريب والبعيد، إلا أن الثابت أن حالة الاهتزاز العنيف الذي لحق بمنظومة إسرائيل الدفاعية والأمنية والاستخباراتية وقدرتها على حماية موقع إسرائيل المتفوق والغير قابل للمناقشة الذي لطالما سوقته إسرائيل عن نفسها أو هكذا كان المُراد أن ينظر عبره العرب إلى إسرائيل، سيترك أثراً ضخماً على عقيدة إسرائيل الأمنية والعسكرية مستقبلاً، ومعه ستتغير بعض المعطيات الإقليمية التي لطالما شجعت إسرائيل على ممارسة أقصى أنماط الردع ضد خصومها.

استراتيجيا:

نجاح مبهر لاستراتيجية «التمويه» التي اتبعتها حركة حماس وجناحها العسكري، وهي التي أحجمت طيلة السنتين الماضيتين على المشاركة الميدانية المؤثرة في العديد من جولات الصراع التي قادتها حركة الجهاد، رغم كل الاستفزازات الإسرائيلية الراغبة في جرّ حركة حماس إلى المواجهة، وهو ما ترك انطباعاً أولياً لدى الكثير من الدوائر الإسرائيلية سواء السياسية أو حتى الأمنية والعسكرية بأن الحركة غير راغبة في التحرّك في ظل الظروف الإقليمية الراهنة، وما عزّز من هذا الإعتقاد الإسرائيلي هو تصاعد نشاط الحركة الرسمي اتجاه بعض حلفائها الإقليميين مثل تركيا وقطر والهادف إلى دفع بعض الخطط التنموية الممولة من هذه الأطراف بهدف إعادة بناء الاقتصاد المنهار في القطاع.

الثابت من خلال هذا أن دوائر صنع القرار في إسرائيل ابتلعت الطعم، بالشكل الذي ساهم في حالة الاسترخاء التي أبانت عليه في الأشهر الأخيرة، رغم تحذيرات بعض الاستراتيجيين وبعض رموز المعارضة من مغبة تمادي اليمين المتطرف المسيطر على دواليب الحكم على نحو غير مسبوق طوال تاريخ إسرائيل السياسي في اثارة مشاعر الفلسطينيين عبر اقتحامات المتطرفين لباحات الأقصى المتكررة، التي تحولت من أفعال شاذة للجماعات الصهيونية المتطرفة في العقود الماضية إلى سياسة دولة من أجلها تُسخّر قوة سلطتها الردعية وقوتها القهرية من أجل تحقيق المبتغى الكهنوتي والنبوءات التوراتية الصهيونية لهذه الجماعات بعد أن أصبحت بعد سيطرتها على الحكومة هي المشرف على وضع ورسم سياسة الدولة العامة.

عجز إستراتيجي أصاب قدرة الجهات الرسمية الإسرائيلية على قراءة المشهد والتنبؤ بمثل هكذا حدث، خاصة وأن هذه الجهات أصبحت تحت سيطرة اليمين المتطرف الذي تقوده دوافع راديكالية شاذة لا تمس للتفكير الاستراتيجي الواقعي بأي صلة، وهو ما يترك بالغ الأثر ليس على مستقبل المشهد السياسي في إسرائيل، إنما على مستقبل التوجهات المجتمعية لهذه الدولة خاصة في ضوء تنامي القوة الدافعة للمجتمع الإسرائيلي نحو بناء مشروع «الدولة اليهودية» وهو ما جسدته هذه الرغبة المجتمعية في تزايد النفوذ السياسي لليمين المتطرف داخل مؤسسات صنع القرار على حساب النخبة العلمانية التقليدية الأكثر مرونة وتأنياً تجاه تبني هذه الطروحات الصهيونية في سياسة إسرائيل الرسمية.

استخباراتيا:

«فشل استخباراتي رهيب» أبان عن عجز كبير على التنبؤ بهجوم بمثل هذا الحجم والذي تشير كل القراءات على أنه تطلّب قرابة السنتين ليتم التحضير له واخراجه بالسيناريو الذي تم به، وهو ما يدل على أن حركة حماس قد تمكنت فعلياً من تحجيم دور شبكات عملاء «الموساد» و«الشباك» داخل قطاع غزة على النحو الذي عجزت بموجبه إسرائيل عن التحصيل المعلوماتي الذي لطالما كان أحد أهم أدواتها لوأد تحركات الفصائل الفلسطينية وقياداتها.

تكتيكيا:

قدرة عالية على التخطيط الحربي ساهم في حالة «الإرباك» وما نجم عنه من «صدمة» انعكس على حالة «الشلل» التي أصابت قوات الدفاع الإسرائيلي، ذلك ما أبانت عليه الطريقة التي إتخذها الهجوم الذي اتخذ ثلاث مسارات رئيسية:

أولا: اغراق القبة الحديدية الاسرائيلية بموجة ضخمة من الصواريخ أوصلتها إلى حد التشبع، ما ساهم في تجاوز عشرات الصواريخ نحو معظم مدن ومستوطنات الجنوب الإسرائيلي فضلاً على العاصمة تل أبيب في حد ذاتها، ورغم أن كل التقارير كانت تشير إلى أن ذلك يدخل في إطار ما هو «معتاد» كونه ظاهرة متكررة في السنوات الأخيرة، إلا أن المبتغى هذه المرة كان مختلفا، حيث ثبُت أن حركة حماس كانت تريد من وراء ذلك تشتيت الجهد الحربي الإسرائيلي نحو اعتراض الصواريخ، وهو ما ساهم في نجاح عنصر «المباغتة» التي تميز بها الهجوم.

ثانيا: تطور سيبراني ملفت أبانت عليه المقاومة الفلسطينية بعد نجاحها في تعطيل الكثير من القدرة التكنولوجية والمعلوماتية لإسرائيل سواء ما تعلق بـ «التشويش على الرادارات»، أو بقطع التواصل بين الوحدات العسكرية الإسرائيلية المنتشرة في غلاف غزة وعزل بعضها عن بعض، وهو ما سهّل عمليات الاقتحام التي شهدتها عديد

القواعد العسكرية الإسرائيلية من طرف عناصر المقاومة، وبقدر ما أصاب ذلك هذه الوحدات الإسرائيلية بالشلل بقدر ما زاد من فعالية «عنصر المفاجأة» الذي تمحور حوله هجوم المقاومة.

ثالثا: اختراق شامل «براً وجواً وبحراً» ذلك ما ميز التنوع التكتيكي الذي اتخذه الهجوم لتجاوز خطوط الدفاع الإسرائيلية بما فيهم الجدار السلكي العازل، فالتصور الإسرائيلي كان مركزاً على أن أي اختراق سيكون عبر شبكة الأنفاق التي عادة ما كانت أكثر الوسائل رواجاً خلال السنوات الماضية، ومن أجل مواجهة ذلك أنشأت إسرائيل جداراً عازلاً تحت الأرض من أجل اقصاء خيار الأنفاق وتحجيم اعتماد المقاومة عليه لإختراق الخطوط الدفاعية الإسرائيلية، ورغم أن التكتيكات التي اتخذها الهجوم الحاصل كانت امراً وارداً، إلا أنها ظلت مستبعدة من التفكير الاستراتيجي الإسرائيلي كونها كانت مرتهنة لأمرين: (الأول) قدرة عالية على اكتساب ما يحتاج هذا الخيار الاستراتيجي من إمكانات عسكرية تفي بالغرض منه. (الثاني) الاعتقاد المطلق لدى القيادة الإسرائيلية بإستحالة امتلاك قيادة حماس للإرادة اللازمة للمراهنة بمثل هكذا سيناريو، وهو ما ساهم في الصدمة والمفاجأة التي اتسم بها الأداء العسكري الإسرائيلي في مواجهة الهجوم رغم غياب الحد الأدنى من توازن ميزان القوة بين الطرفين.

مواقف إقليمية ودولية:

في أبرز المواقف الإقليمية الراهنة يبرز موقف المملكة العربية السعودية حيث اعاد بيان لوزارة الخارجية السعودية التذكير بـ «تحذيرات المملكة المتكررة من مخاطر انفجار الأوضاع نتيجة استمرار الاحتلال وحرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه المشروعة وتكرار الاستفزازات الممنهجة ضد مقدساته»، وجدّد البيان « دعوة المجتمع الدولي للاضطلاع بمسؤولياته وتفعيل عملية سلمية ذات مصداقية تفضي إلى حل الدولتين بما يحقق الأمن والسلم في المنطقة ويحمي المدنيين».

في أولى المواقف الدولية أبدت الإدارة الامريكية على لسان رئيسها ووزير خارجيتها دعماً مطلقاً لإسرائيل وهو ما يدخل في إطار المعتاد من مواقف أمريكية في مثل هكذا أحداث، وهو ما يجعل من الرهان على الخلاف الإسرائيلي الأمريكي الذي وصل لحد رفض مسؤولين أمريكيين استقبال بعض وزراء اليمين المتطرف في حكومة نتنياهو نتيجة سياساتهم المتطرفة ورغبتهم الجامحة في تمرير قانون القضاء الجديد، إلا أنها خلافات لا يمكن بأي حال من الأحوال التعويل عليها للمساس بموقع إسرائيل الثابت في الرؤية الامريكية وجوهر العلاقات الامريكية الاسرائيلية، خاصة وأن الإدارة الامريكية الراهنة مقبلة على استحقاق الانتخابات الرئاسية التي تلعب فيها اللوبيات دوراً بارزاً.

ما جرى على الموقف الأمريكي يجري على الموقف الأوروبي الذي أبدى هو الآخر دعما مطلقا لإسرائيل، وهو الآخر يدخل في المعتاد من مواقف أوروبية التي ورغم حرصها على ابداء نوع من التمايز عن نظيرها الأمريكي إلا أنها تعود لنفس الغرض هو جعل إسرائيل فوق كل أشكال من اشكال المحاسبة.

المواقف العربية الرسمية كلها صبت في مسار واحد وهو الدعوة إلى ضبط النفس والاحتكام إلى العقلانية، وهو الأمر الوارد في ظل ما يكتنف علاقات إسرائيل مع كثير من الدول العربية من جهة، وفي ظل محدودية الخيارات المطروحة أمام هذه الدول من جهة أخرى.

وهنا لابد من الوقوف عند البيان المهم لوزارة الخارجية السعودية والذي ذكّر «بتحذيرات المملكة المتكررة من مخاطر انفجار الأوضاع نتيجة استمرار الاحتلال وحرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه المشروعة وتكرار الاستفزازات الممنهجة ضد مقدساته». وجدد « دعوة المجتمع الدولي للاضطلاع بمسؤولياته وتفعيل عملية سلمية ذات مصداقية تفضي إلى حل الدولتين بما يحقق الأمن والسلم في المنطقة ويحمي المدنيين».

سيناريوهات منتظرة:

لا خلاف على أن ما حدث من اجتياح عسكري من طرف قوات المقاومة الفلسطينية يعد حدث تاريخي لم تشهده المنطقة من قبل، وهو ما سيترك حتما تداعيات ضخمة داخليا وإقليميا ودوليا، غير أن الثابت أن هناك العديد من السيناريوهات الممكنة أمام تطور الأوضاع:

على المدى القريب:

السيناريو الأول: رد إسرائيلي دموي لم نشهده من قبل اتجاه سكان القطاع مصحوب بإجتياح بري واسع النطاق للقطاع يكون من أهدافه إزاحة حركة حماس من الحكم، يعد من السيناريوهات الواردة بالنظر إلى أن هذا هو الحل الوحيد أمام حكومة اليمين المتطرف من إعادة الاستقرار للجبهة الداخلية المهتزة أصلاً في ظل الاحتجاجات السابقة، ولمواجهة تداعيات هذه الانتكاسة التي لم يسبق وأن واجهتها إسرائيل.

السيناريو الثاني: تفعيل الدور الإقليمي للوساطة هو خيار إيجابي للجانبين، فمن جهة إسرائيل فإن العدد الكبير من الأسرى في يد المقاومة والذي وصل حسب بعض الروايات إلى قرابة ١٠٠ أسير من بينهم ضباط رفيعي المستوى، سيقلّل من فعالية النتائج المرجوة من السيناريو الأول، فضلاً على أن حجم المخاطر المرتبطة بإجتياح شامل للقطاع والخسائر والثمن المرتبط بذلك بالنسبة للجانب الاسرائيلي، ربما ستكون ورقة ضغط إضافية أمام القيادة الإسرائيلية تزيد من فرص تعزيز تفعيل الدور الإقليمي أكثر الخيارات عقلانية بالنسبة للجانب الإسرائيلي في ضوء المعطيات الراهنة، أما من جهة حركة حماس وباقي فصائل المقاومة فغإن ذلك يجعلها في أحسن رواق لتجنب رد إسرائيلي دموي الذي ورغم إنه لن يغير من تداعيات الحدث لكنه سيزيد من التكلفة البشرية لما تم تحقيقه من انجاز.

تداعيات بعيدة المدى:

داخليا: سيزيد هذا الهجوم من عمق الأزمة الإسرائيلية الداخلية الناجمة عن تصاعد نفوذ الراديكاليين وتراجع نفوذ المعتدلين، ومعها سيتصاعد صراع تهويد دولة إسرائيل المستقبلية.

أما على المستوى العسكري فستطرح داخل إسرائيل حتمية جدوى العقيدة العسكرية والأمنية الإسرائيلية على نحو جاد بعيداً عن المراهنات الخاطئة والبروبغاندا التي لم تعد تُجدي كما كانت عليه سابقاً، بعد الزلزال الأمني الحاصل وتداعيات هذه النكسة.

إقليميا: أعاد هذا الهجوم محورية الحضور الفلسطيني في أي مشروع قادم للتسوية، كون القاعدة المفروضة حاليا هو أنه لا يمكن تغييب العنصر الفلسطيني عن مسيرة الحل

مهما بلغ حجم التطبيع الإسرائيلي مع محيطها العربي، فالفلسطينيين هم أصحاب القضية المباشرين واشراكهم في رؤية مستقبلية للتسوية هو أمر حتمي لا يمكن تجاوزه دولياً: ستتراجع قيمة إسرائيل الاستراتيجية انطلاقاً من قدرة باقي الأطراف المناوئة لها على إلحاق الضرر بها، وهو ما يضع إسرائيل في حرج ليس أمام اعدائها فحسب بل حتى أمام حلفائها الغربيين.

عموما فإن ما حصل يُثبت بما لا يدع مجالاً للشك نقاط الضعف التي تتسم بها قدرة إسرائيل الدفاعية، التي لطالما روجت إلى أنها غير قابلة للاختراق، إلى أن ثبت عدم صحة ذلك، ليبقى السؤال الراهن مرتبط بما مدى تأثير ما حدث على قدرة الردع الإسرائيلية ليس اتجاه حركة حماس وجناحها العسكري فحسب، بل اتجاه خارطة التوازنات الإقليمية وبخاصة اتجاه ايران التي لطالما لوحت إسرائيل وحكومتها الراديكالية بأفضلية التعامل العسكري لمواجهة برنامجها النووي. بل إن تداعيات ما حدث بالأمس يمكن أن تطال على المدى البعيد موقع إسرائيل في المنظومة الغربية برمتها وهي التي لا تُخفي أن إسرائيل هي قاعدة متقدمة للحفاظ على نفوذها في المنطقة، غير أن تسارع المواقف الغربية وفي مقدمتها الموقف الأمريكي الداعم لإسرائيل مادياً ومعنوياً، سيعيد قراءة موقع إسرائيل في المنظومة الغربية برمتها وهل هي أداة للحماية أم عبء استراتيجي إضافي على الغرب يتطلب توفير الحماية له، أو بمعنى آخر من يخدم مصلحة من؟

باحث أول بمركز الخليج للأبحاث

Gulf Research Center
Knowledge for All

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

جميع الحقوق محفوظة لمركز الخليج للأبحاث ٢٠٠٢ - ٢٠٢٣ ©

www.grc.net